الصراع

تتمة القصة التي نالت جائزة المقتطف الثانية

النيل مرخٍ سدولهُ الناعمة والطبيعة ممسكة انفاسها وماء النيل العظيم يتوارد في سكون مترقب والقمر مرهف ينصت من بين الغيوم الى حديث شاب وشابة قد اتخذا من احجار خزان اسيوط مقعداً رأيا احجارهُ الصلدة ارقَّ من قلوب البشر وطعما من صمتهِ الخالد في حارس امين على اسرار سلطان اقوى يتحكم في الارواح ويتصرف في القلوب

وكانت الشابة مثالاً للجمال الشرقي الاسمر الجذَّاب الذي يوقظ نفوسنا ويثير فينا ذكريات مبهمة عذبة جميلة عن الغواني الحسان اللواتي انسينَ سليمان حكمتهُ وضيَّعن على شمشون قوتهُ وسلبن انطونيوس تدوذهُ وسلطتهُ ..... تلك الدمى من البلور اللدن والعاج البض المزينة بشفاه مصبوغة بدماء الحياة وخمرها واسنان بهية كصخور الشواطئ البيضاء غسلتها الامواج وسكبت تحت اقدامها كل ما كان فيها من عزم واهبة وجلال — او عيون مسكرة ترى في نعاسها ليالي ساهرة تشوى ملوءة بالنذات كليالي الف ليلة وليلة، وحواجب اشرفت على العيون فابتليت بغرامها فتراها دقيقة كالمضى بسط ذراعيهِ ليطوِّق محبوبهُ ثم يرجعهُ التنزيه والتقديس ويمنعهُ الخجل والضعة فيبقيها مبسوطتين رمزاً للحب الابدي اليائس ، وفوق الجميع تاج من الشعر الاسود تسكنهُ الاحلام والاماني حالك طويل كليل الصب لدن متثنٍ كالنسيم المعطَّر الراقص بين الاودية مهيب عزيز كلبدة الاسد، ورثت من امها حواء السحر والفتنة اللتين غلبت بهما ربها على امره يوم ان استلبت من يدهِ ذلك المخلوق الذي براه على صورتهِ ومثالهِ ليجعلهُ بهجة نفسهِ وقرة عينهِ ، يوم ان استدرجت الرجل وخرجت بهِ الى العالم المسعر نار كة الجنة بجراحها ذوي السيوف النارية المنقلبة مظهر الغضب الجبار بعد ان كان بالرجل والمرأة العريانين مظهراً لحب اللطيف ورحمتهِ : فتاة من ذلك الجنس الغريب الذي ضعفهُ مظهر قوتهِ وتجنيه دليل وداده وتملقهُ برهان كراهتهِ — صوتهُ يحدثك بصوت اعلى من ضجيج العاصفة ، وحديثهُ غرار كالسراب مبهم كالصدى خوَّان كالقصة المرضوضة . وكان رأسها الجميل مستقرًّا على صدر الشاب كالامل العذب في صدر الفترة

وكانت ذراعهُ القوية تمنطق عنقها الفتن كما تمنطق التميمة الفعالة عنق الصبي المدلل — اما الشاب فقد كان رمز الرجولة .. قوام ممتلئ مشوق ، وعنق قوي غليظ ، يحمل وجهاً كتبت عليهِ آية العزم الذي لا يلين والصبر الذي لا ينفد والشجاعة التي لا تعرف الخوف يستطيع ان تستشف من ملامحهِ سماة الشعب التركي الباسل

طال الصمت وفجر القمر المنصت من بين الغيوم فبرز والقى على الحبيبين تلك الظلالة الرقيقة المحمورة التي تظهر خفايا مشاعرها ورفعت الفتاة رأسها عن صدر رفيقها ، كأنما استأنست بشبيهها ، وارسلت زفرة حرّى لفطعت لها نياط قلب الشاب ، فاختطف اصابعها اللدنة ، وابقاها بين يديهِ القويتين كأنهُ يحميها من خطر يراهُ بعيني روحهِ ، وقال وهو يتكلف رسم صورة الجلد والاستخفاف على وجههِ المتعب المضعضع — ما لك واي الناس تصفو مشاربهُ ؟

ادارت الفتاة رأسها ببطء ، وعيناها تبحثان عن عيني رفيقها ثم قالت — انت تريد ان تسل كلوم قلبي بدماء قلبك التي اسالتها السكين ، التي تطعنا معاً . وان تطفئ لهب روحي برماد روحك الذي خلفتهُ النار التي تحرقنا معاً ..... لكن الميت لا يحيي الميت والسمُّ لا يشفي من السم

وقف الشاب تمثالاً للغضب اليائس وصاح بصوت كزئير الاسد المحبوس — لو كان الرجل جزءٌ ان يرفع بصرهُ الى بهائك ، رجلاً غير أبي اذن لاعتصرت قلبهُ بيدي الى ان ازيل حتى ذكريات حبك من نفسهِ ، ولسحقت رأسهُ بقدمي الى ان امحو حتى رسمك من مخيلتهِ ... ولكنهُ ابي — ابي الذي احبني ويحبني فلا استطيع ان اكرههُ .... انهُ ابي .... ابي .... ابي !!!

— نعم هو ابوك ابوك الذي تحبهُ انا انا فانا ..... انا المرأة التي فتحت اذنيها لصوت قلبها ، فاحبت الرجل الذي عيّنهُ ، فعلّة هذا جرمٌ عليها تعاقب من اجلهِ بان تدفع الى ذراعي الاب بدلاً ان ترتمي على صدر الابن ، وان تكره على ثم الرأس الاشمط ببياضهِ الشائع بين سوادهِ كحناجر مشهرة في الظلام مستعد في قلبها ، بدل ان تتمتع بالتهالك على تقبيل الشفاه التي اسمعت قلبها النشيد الذي لقنهُ الله لآدم يوم ان سلّمهُ حواء ، الذي يردده العصفور لاليفتهِ وهما مختبئان بين اوراق الربيع ، النشيد الحر الذي يربط الرجل بالمرأة ... فاذا هما كلٌّ لا يقبل التجزئة وبعضٌ يكملهُ الله

— هدى.... حياتي ... لا تعذبيني انت تعلمين اني احبك بجموع قلبي .. ـ ..
وهل شككتُ انا في حبك ؟ لا ولن اشك لكن اسمع خطتي ... فان احببتك قبلتي
سأكون عروسك او عروس القبر
ـ وسأكون عريسك او عريس الابدية
وكانت قبل خرساء وعهد مكتوب بالدموع المسجمة في اسىً صابر معتزم

٦

الساعة العاشرة مساء والليل ساجٍ ساكن لا يسمع فيهِ الاَّ صوت المقرئ الحلو يرتل آي الذكر الحكيم . وكان قصر جلال بك منتصباً في الظلام كأرد طويل يظهر النور من خلال نافذتين متجاورتين فيهِ . الاولى نافذة جلال بك والثانية نافذة ابنهِ عصام — وكان جلال بك جالساً امام مكتبهِ و بيدهِ ورقة طويلة بهـا اسماء مزارعي الناحية وامام ثلاثة اسماء منها علامات خطت بمداد احمر — هؤلاء الثلاثة هم الذين كان يخشى جلال بك ان تبلغ بهم الجسارة حدًّا يخرجون فيهِ عن ارادتهِ في الاجماع على انتخاب امين باشا ... رفع جلال بك نظره عن الورقة وحوّلهُ الى سقف الغرفة ثم قرع الجرس قرعاً شديداً متواصلاً . . .

استدع سيدك عصاماً

وكان عصام امام مكتبهِ معتمداً رأسهُ بيديهِ وفي عينيهِ بريق مرعب وقد ارتسم على جبينهِ القنوط الميت جنباً الى جنب مع العزم المستميت

— سيدي البك يريد مقابلتك طيب

— وقف عصام ويدهُ على جبهتهِ الملتهبة وهو يقول .. أيتها السماء ادخري قوتك لي ، ايتها الارض اعيريني ثباتك واستقرارك ، ايها الجحيم اخلع عليَّ استارك وتلهبك

— ثم مساء يا ابتاه ـ نعمت مساء يا عصام .. اجلس . تمالك عصام على اقرب كرسي اليهِ وقلبه مضطرب خافق لانهُ احس بعصا القدر تسوقهُ الى مصير مجهول . رآها تقلب العاصفة لتقيمها في وجه العاصفة، وتدير رأس الموجة لتسوقها الى الاصطدام بالموجة، وتحول الاسد عن طريقهِ لتحملهُ على الاصطدام مع الاسد

وأحس عصام في تلك الساعة انهُ بطل ، لانهُ كان يدافع عن الحرية التي تعلم ان يقدسها و يعبدها ، وعن الحب الذي كرّس حياتهُ لهُ ، وعن البنوة التي تحملهُ ان

تدفع الطعنة الموجهة الى صدر امه، امه التي كان رأسهُ الملتهب ملقى على صدرها المضطرب من ساعة واحدة وينظر الى وجهها الجميل الحزين كورود الضريح ، البعي المختنق كشمس الغروب ، الثابت المتألم كايمان الشهيد ، يسمع صوتها الحلو تقطعهُ الزفرات والقبل، يهمس في اذنهِ « قلبي معك يا عصام والضربة الموجهة الى رجولتك ستمر اولاً على انوثتي . ابوك زوجي رأى فتاة في حيتك فاعجبتهُ ، وانت رأيت رجلاً هو ابوك يسطو على حمامتك فانت ستنقض عليهِ ويد القدر سلحت الاب بالشهوة وسلحت الابن بالغيرة وساقتهما في الظلام ليقتتلا ، واخشى ان يرتفع الستار فاذا مدية الاب في قلب الابن ومدية الابن في قلب الاب وتبقى الام الزوجة وحدها ، تدعو لقاتل ابنها وترحم على القاتل بزوجها. انا لا استطيع ولا اريد ان اقف في وجهِ ابيك ومع ذلك فان الخمس وعشرين سنة التي قضتها روحي في التمام مع روح ابيك تمكنني من ان اقول بثقة ان اباك ليس شريراً. انهُ يثور حتى تحسبهُ سيحرقك حيًّا ، ثم يذوب حتى لتراهُ سيغرقك رأفة ، وكثيراً ما استنزل بهول غضبهِ دموعي، ثم مسح بقبلات ندمهِ عبراتي ..... نعم ابوك ليس شريراً وفوق ذلك هل نسيت وجود الله ؟ »

انتبه عصام فجأة من احلامهِ على صوت ابيهِ يقول في عزم :

— انك ستترافع غداً في قضية احمد محمد عمران ؟

— نعم

اذاً فلا تذهب بل كلف من يطلب التأجيل . لكن . . . لماذا ؟

وقف جلال بك و يداهُ وراء ظهره واخذ يسير في الغرفة جيئة وذهاباً ووقف عصام صامتاً متلهفاً مستعدًّا ـ استدار جلال بك فجأة وقال ـ سينجح امين باشا في الانتخابات لاني اعاونهُ ، وانت تعلم ان عمران قد تبلغ بهِ القحة حدًّا قد يفكر معهُ في الخروج على امري في انتخاب امين باشا فانا اريد ان تكون قضيتهُ لجاناً يضمن لي تسييرهُ وفق ارادتي

ـ لكن هذا لا يتفق مع مبادئ الحق والعدل وانا . . . . .

هاج هائج جلال بك فضرب المنضدة بقبضة يدهِ ثم قال ـ الحق والعدل !!! . . .

ثم استطرد في غضب مكظوم ـ اعبد حقك وعدلك كما تشاء لك نفسك الطائشة وعقلك الفج ولكن بعد هذه المرة . . . . اسمع ، اني عازم على الزواج بهدى ابنة امين باشا ومقابل ذلك سينجح أمين باشا في الانتخابات . . . . وانا واثق انك لا تريد ان تقف في سبيل مسرة نفسي . . . . . ابه ؟؟؟ . . . .

أني اضحي بحياتي لاطبع ابتسامة على شفتيك ، ودمعك دمي لا غسل كدراً عن قلبك ، ولكن المسرة التي تطلبها مستحيلة في وجودها حرية الوف من البشر لهم حق في الحرية ، وسلب من زوجتك اي حبا استحقتهُ بتضحيتها وودادها واحتمالها خمساً وعشرين سنة

— ايها الكلب اخرس . . . اخرس . . .

— وفوق ذلك فهي لا تعوضك عن قلب اي قلباً آخر لان قلبي حبيبتي وانا حبيبها وقلبها في وحدي

اخرس أخرس ايها الكلب . . . اقتلك . . .

برح عصام غرفة ابيهِ رافع الرأس هائل المنظر واغلق الباب وهو يتمتم « انا لست كلباً »

٧

مرت على جلال بك ساعتان طويلتان وهو يذرع غرفتهُ جيئةً وذهاباً كالاسد المحبوس ينقل يدهُ من رأسهِ الملتهب بنار الغضب والشهوة ليضعها على قلبهِ الخافق بعواطف الابوة والحب . تركض امامهُ في الغرفة الضيقة ثلاثة خيالات غريبة الاول عصام شبلهُ برأسهِ المرتفع وعينيهِ القويتين يصيح فيهِ « سخسر قلب زوجتك وقلب ابنك وستكسب فقط كراهة الالوف من الناس ، اما قلب هدى فلي وحدي » والثاني خيال « جميلة » الزوجة الوفية بوجهها الجميل الساير المؤمن تهمس في اذنهِ « ارجع الي يازوجي » الخيال الاول يستثير فيهِ عاطفة الابوة والخيال الثاني يزكي فيهِ عاطفة الزوجية . . . . . اما الخيال الثالث فلفتاة فتانة ساحرة تحيط برسمها اليوم الزهية يستثير فيهِ عاطفة الشهوة ان صح ان تسميها عاطفة .. فكان وجه الرجل مسرحاً لصراع الشر مع الخير . . . . . لصراع الشهوة التي ستأمر قلبهُ وستأسر من ورائهِ ارادة الوف ، مع الزوجية والبنوة وما يتلوها من سعادة وحرية ، وكان صراعاً قوياً في نفس قوية وان لم تتصارع العواطف في نفس جلال فهي اي ميدان تتصارع

— هو يقول انهُ يضحي بحياتهِ ليطبع ابتسامة على شفتيَّ ويسفك دمهُ ليغسل همّاً عن قلبي . . . . ما اكذبهُ !!! ألم يقف في وجهي انا ابوهُ . . . ألم يثُر على ابيهِ في سبيل فتاة ؟ . . . . . لكن ان كنت انا وانا انكل قد دست في سبيل الشهوة التي موضوعها هذه الفتاة زوجتي وابوتي فلماذا الومهُ لانهُ في سبيل حبهِ للفتاة عينها وبنوتهِ لابيهِ قد ثار على ابوتهِ ؟ . . . . . لكن هل استطيع ان اصغي عن وقاحتهِ . . . . . ؟

ارتمى جلال بك على المقعد الاقرب مجهوداً وهو يغمغم «انهما متحابان» ثم وثب فجأة لفكر هائل طرأ عليه وهو يصيح زوجة ابيه ، الفاجر ، الفاجر ..... ثم ارتمى على مقعده مرة ثانية وهو يقول ولكنها ليست زوجة أبيه .... ومن قال انه عشيقها قد يكون حبيبها فقط وهل تزوجت انا جميلة الا بعد ان احببتها اولاً ؟ ثم وقف ورأسه ملتهب طافح بالخيالات والهواجس وفتح النافذة وهو يقول

«ايتها السماء انقذيني من هذه الافكار»

دخل هواء الليل البليل يحمل على اجنحته الخفية صوت المقرئ الرنان يرتل من القرآن الكريم

«وان خفتم الا تعدلوا فواحدة»

وهكذا استجابت السماء دعوة جلال بك في اسرع مما كان ينتظر

٨

عاد عصام الى المنزل في الساعة التاسعة مساء فنبأه البواب ان اباه ينتظره بمنزل امين باشا وكان عصام يعرف ان هذا المساء هو آخر المهلة بين جلال بك وامين باشا ولكنه مع ذلك ساور الى منزل امين باشا وهو يقول «اذن سأكون شاهداً في حفلة زواج ابي بحبيبتي .... ولمَ لا ؟ ! ما دام الانتحار سيخلصني من آلامي كلها فلأشرب الكأس حتى الثمالة

وكان جلال بك قد وصل الى منزل امين باشا قبل وصول عصام فاستقبله الباشا في بشر ضعيف مصطنع

— خير ان شاء الله يا باشا — كله خير يا بك —

— عظيم لكن هل حضر العريس ؟

رفع امين باشا رأسه وهو لا يفهم ماذا يقصد جلال من التعمية ولكن قال وهو يشير اليه في انحناء خفيف

— أجل حضر محفوفاً بالتهنئ والاقبال

— اذاً اين هو ، اني لا أراه ؟

امتلأت عينا امين باشا دهشة ورأى ان هناك شيئاً غير التعمية وساءل نفسه «هل جُنَّ جلال بك ؟» ثم سأله في لهفة «عمن تتكلم ؟»

— عن العريس عصام ، عصام الذي ستزف اليه ابنتك بعد ان ارتبط قلباهما برباط الحب

— عصام !! عصام !! ولكننا .....

— نعم عصام ، هل ترفض عصاماً زوجاً لابنتك ؟ ..... اني قوي ولكن قوتي قد خانتني لما حاولت ان اسلب ابني وزوجتي سعادتهما ..... قد عدلت عن كل افكاري ..... هل ترفض عصاماً ؟

— انا ..... انا لا ارفض ولا هدى ايضاً ترفض

— اذن فليتمتع الشباب بالشباب

— ارتمى امين باشا على مقعده وهو يرتجف غبطة ثم وقف وقال « فليتمتع الناس بحرية الانتخاب » وفي تلك اللحظة دخل عصام وحيا وظل واقفاً فقال ابوه اجلس . لا . هنا قريباً مني . مالك نافر الست راضياً عن عروسك

رفع عصام عينيه الى عيني ابيه وفيهما من الالم والغضب اكثر مما فيهما من الدهشة والذهول ثم ارخاهما في يأس حزين وهو يكرر

« ما دام الانتحار سيخلصني من كل آلامي فلأشرب الكأس حتى الثمالة ولاحتمل حتى السخرية المرة »

جلال بك ، مالك متبدل هكذا ؟ ألم تصرح لي البارحة انك تحب هدى وانت هدى تحبك وما قد قبل سعادة الباشا ان يزفها اليك فما لك تتلقى الخبر بهذا البرود ؟ ثم استطرد مداعباً : وأين حماس الامس ؟!!

رفع عصام عينيه الى امين باشا فرآه يبتسم وفي تلك اللحظة سمع تأوهاً اعقبه سقوط جسم شخص كان ينصت من ثقب الباب وعلم عصام صوت المتأوهة وادرك الحقيقة كاملة فوثب الى الباب كالمجنون وتبعه الرجلان فاذا هدى مغمى عليها بين ذراعي عصام واذا عصام يوسعها قبلاً واذا الرجلان يبكيان بصوت عال .....

وهكذا نفخت الشيخوخة وبرز الشباب فانحدرت الشهوة وانتصر الحب وسقط الاستعباد وقامت الحرية

وانتهت المعركة كالاعصار .. جبار قصير الاجل

وكانت الملائكة تصفق في السماء وكان الحق يبتسم على العرش

سليم شحاته ملوي